

ISSN : 2335-1071 ردمد

مخبر الخطاب الحجاجي
أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر
جامعة ابن خلدون -تيارت



ملف العدد:

الشعرية و تلاشي وثوقية التصنيف الأجناسي
جهود الباقلاني في الكشف عن مظاهر انسجام الخطاب القصصي القرآني
حوارية البلاغة بين التخييل و الإقناع لدى حازم القرطاجني
النفي البلاغي في القرآن الكريم
التمثيل الحجاجي للكناية والتعريض في القرآن الكريم

ديسمبر 2016

العدد 16

المجلد الرابع

دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية والنقدية واللغوية والأدبية والبلاغية باللغتين العربية والأجنبية

فصل الخطاب العدد السادس عشر ديسمبر 2016 Décembre Revue n°16 Faslo El-Khitab



ISSN: 2335-1071

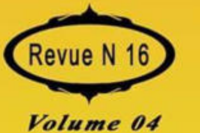
Laboratoire du discours argumentatif
ses origines, ses références ses perspective en Algérie
Université Ibn-Khaldoun-Tiaret

Faslo El-Khitab

(Art d'Argumenter)

Décembre 2016

Revue périodique a vocation scientifique, traitant des domaines de la critique littéraire, la languistique et la rhétorique en langues arabe et étranger



Revue N 16

Volume 04

فصل الخطاب

دورية أكاديمية محكمة يصدرها مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر
تعنى بالدراسات والبحوث العلمية النقدية واللغوية والأدبية والبلاغية باللغتين العربية والفرنسية

العدد السادس عشر

ديسمبر 2016

ردمد ISSN 2335-1071

رقم الإيداع القانوني 1759 - 2012

جامعة ابن خلدون - تيارت
الجزائر

توجه المراسلات إلى إدارة المخبر أو المجلة
ص.ب. 78 زعرورة _ تيارت 14000 _ الجزائر
أو عبر: faslkhitab@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

قواعد النشر بالمجلة

1. تهتم المجلة بنشر كل الأبحاث التي تعالج قضايا في حقل الحجاج والنقد الأدبي والبلاغتين القديمة والجديدة وما يدور في حقل اللغويات وله علاقة بهذه المواضيع . كما يمكن أن تنشر المجلة نقدا متخصصا أو مراجعة أو ترجمة لأحدث المدونات العلمية الصادرة باللغة العربية أو اللسان الأعجمي.

2. لغة النشر عربية، فرنسية، إنجليزية، على أن يصحب البحث بملخصين مجتمعين في صفحة، أحدهما باللغة العربية والآخر إما باللغة الفرنسية أو الإنجليزية.

3. ألا يكون المقال قد سبق نشره أو قدم للنشر في أي إصدار آخر .

4. يقدم المقال المكتوب بالعربية بخط **(Traditional Arabic)** قياس 14في المتن و11في الهامش، أما المكتوب بالأجنبية بخط **Times New Roman** قياس 12 في المتن و10في الهامش وكلاهما بمسافة 1سم بين الأسطر وهوامش 4 سم (من الجهات أربع)، وألا يتجاوز البحث عشرين (20) صفحة بما في ذلك الإحالات، التي يشترط أن تكون إلكترونية، أما الجداول والترسيمات والأشكال فتكون صورا **IMAGE** .

5. بعد موافقة اللجنة الاستشارية المؤهلة للخبرة العلمية على الأعمال والبحوث، تعرض على محكمين اثنين من ذوي الاختصاص يتم اختيارهما بسرية مطلقة. وتحتفظ المجلة بحقها في أن تطلب من صاحب المقال التعديل بما يتناسب ووجهة نظرها في النشر .

6. لا تعبر البحوث المنشورة بالضرورة عن رأي المخبر، والمجلة غير مسؤولة عما ينتج عن أي بحث، والدراسات والبحوث التي ترِد المجلة لا تُردّ إلى لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

7. ترتيب المقالات في المجلة يخضع للتصفيف الفني وليس لاعتبارات أخرى كمكانة الكاتب أو شهرته أو غير ذلك.

الفهــــــرس

كلمة رئيس التحرير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أما قبل ....

مع طموح متفلت من رقابة الواقع والمحيط، يتجاوز العراقيل والمثبطات، وإرادة تعبد الطريق وتذلل الصعاب، وطاقم أغلبه شباب متطلع لرؤية أفضل، تشرئب روحه إلى المعرفة في أقصى مداها، وفي مختلف مناحيها، قد يهون عليه ركام المعوقات والتعب وتردي ما صارت إليه الجامعة، وهو الذي عايش أوج عنفوانها ومع كل ذلك فيستنهض الأمل من جديد ويشحذ الروح والهمة معا، فتولد طاقة أخرى ترمم ما انصدع، وتوصل ما انقطع في حيوية متوشحة بالجسارة الروحية، والتحدي المتسم بالوقار.

وذلك ما يلاحظه الرائي المتأمل أو المتعجل من أسراب الطلبة والطالبات وهي تفد على قاعات مخبر الخطاب الحجاجي والمورد العذب كثير القصاد كما قال الشاعر قديما، وهو ما يزيد الثقة بالنفس، ويزرع الثقة والقبول، ثم احتساب كل ذلك عند الله تعالى .

وذلك ما دأبت عليه نخبة هذا المخبر، من خفض الجناح، أو التقرب إلى طلبة الدكتوراه أو الماستر أو حتى الليسانس، مما رغب هؤلاء الطلبة إلى الاندماج فرادى ومجموعات في هذا المخبر إما بالاستشارة أو اقتناء الكتب، فترى القاعة الكبرى كحديقة غناء وقد فاح أريجها، وباح عبقها. فتستقطب الفراشات والنحل، إما للاستجمام أو لصنع العسل، وذلك هو شأن مجلة فصل الخطاب، لسان حال مخبر الخطاب الحجاجي، في استقطابها للدراسات الجادة والواعدة في شتى أصناف المعرفة، تراثية كانت أم حداثية، ولا عبرة عندنا لهذا التصنيف الزمني، وإنما العبرة للمعرفة وحدها التي تنبني على التراكم، فلا قيمة للحاضر إلا باعتباره إفرازا للماضي، ولا قيمة لهذا الماضي إلا اذا كان حاضرا في وعينا ووجداننا حضورا يفاعل الراهن تفاعلا منتجا .

وهذا الوعي بهذه الإشكالات المتداخلة هو ما سيلاحظه القارئ في هذه المقالات المتنوعة كالشعرية وتلاشي وثوقية التصنيف الأجناسي، تشظّي الأصل الجامع وتكوثر التشجير المفارق، وجهود الباقلاني في الكشف عن مظاهر، وانسجام الخطاب القصصي القرآني، والانفصال في العربيّة، "الضّمير أُنموذجًا"، وحوارية البلاغة بين التخييل والإقناع لدى حازم القرطاجني، ومفهوم النظم عند المعتزلة، الملامح الفكرية لرؤية المعتزلة للإعجاز في الخطاب القرآني، ومنهج دراسة المجاز في القرآن الكريم. بين فكر البلاغيين والأصوليين، والنفي البلاغي في القرآن الكريم، والأداء الصوتي وأثره في تلقين رسالة الخطاب القرآني، والملامح التّداولية لأسلوب التّأكيد في التّراث النّحوي العربي مقاربة سيّاقيّة من خلال نظرية الأفعال الكلاميّة، والمرجعيات ودورها في تشكيل المصطلح بين مدّ التّراث وجزر الحداثة، وعلم اجتماع الأدب، فروعه ومناهجه، وبلاغة السرد في قصيدة النثر، أدونيس أنموذجا، ودلالة الرمز الصوفي في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، والشعر العربي بين رؤيا المقاربة والمفارقة في النقد، وسؤال الهوية في الخطاب الديني في رواية "قليل من العيب يكفي"، وحضور الخطاب الايديولوجي في الرواية الجزائرية "الوساوس

الغريبة"، وانفتاحيه بنية النص اللغوية، في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه"، ولغة الاختصاص بين الغموض الدلالي وتحديات الترجمة،

وإيمانا منا بانفتاح المعرفة، مع اعترافنا بمفهوم التخصص الذي دأب عليه البحث الأكاديمي في صرامته ، ومع كل ذلك تظل المجلة وفية لخطها الذي ارتضته تخصصا، مقيدا ومفتوحا في الآن ذاته. هذا التخصص التي هي مشروطة بوجوده تحديدا في الدراسات الحجاجية باعتبارها مدار المخبر ، وعليها بُني وبها يستمر، ومنها ينطلق وإليها يعود. وهو وفاء لشرعية عنوانه، ولذلك جاءت دراسات الحجاج في هذه المقاربات كالحجاج في الخطاب النقدي الدرامي التلفزيوني: الإشكاليات والرهانات، وتعليمية النص الحجاجي في المرحلة الثانوية الأسس النظرية والإجراءات التطبيقية، والتمثيل الحجاجي للكناية والتعريض في القرآن الكريم.

وعلى كثرة ما يصلنا من مقالات كثيرة في التخصصات المختلفة، وعلى تفاوت كفاءتها العلمية فإن الفيصل الوحيد هو التحكيم السري، ولم تعد مجلة فصل الخطاب حكرا على أساتذة الجزائر فقد وصل صداها الى المغرب والامارات والسعودية وقطر والعراق وحتى بلغات أخرى وعلى هذا فإن طاقمها يرحب بكل الدراسات الجادة وسوف تبقى وفية لخطها آملين أن يزيدنا الله مددا بلا عدد .....

ولله الفضل والمنة

الأستاذ الدكتور: أحمد بوزيان

مفهوم النظم عند المعتزلة

الملامح الفكرية لرؤية المعتزلة للإعجاز في الخطاب القرآني

الطالب: دحماني شيخ　　　　إشراف الأستاذ الدكتور: حفيان محمد

جامعة سعيدة ـ الجزائر　　　　جامعة سعيدة ـ الجزائر

جاء هذا البحث ليكشف الغطاء عن جانب مهم من تراثنا البلاغي الذي له علاقة وثيقة بإعجاز القران الكريم. فحاولنا من خلاله عرض رؤية المعتزلة للإعجاز في القران الكريم، وهي رؤية تختلف تماما عن رؤية الامام عبد القاهر الجرجاني لمسألة الاعجاز وانه راجع الى طريقة نظم المعاني. وقد اعتبرت رؤية المعتزلة للإعجاز نظرية متكاملة في "النظم" بدأت مع الجاحظ واكتمل نضجها على يد القاضي عبد الجبار الهمذاني، وهي رؤية نابعة من تصور المعتزلة وعقيدتهم.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني، النظم، المعتزلة، الإعجاز، الجاحظ، القاضي عبد الجبار الهمذاني، الامام عبد القاهر الجرجاني.

The Intellectual Features of Mu'tazil's Vision of Miracles in the Qur'anic Discourse

Abstract

This research is mainly meant to unveil an important side of our rhetorical heritage and its relation with the inimitability of the Quran. We tried through it to demonstrate the point of view of Al Mutazila regarding the Qur'an inimitability, which is different from the point of view of The Imam Abd EL Kader El Djurdjani. I considered that Al Mutazila had a complete vision when it comes to "composing semantics".It started from Al Djahidh and reached its peak on the hands of Judge Abd Al Djabbar el Hamadani. It is a vision derived from the Mu'tazila's perception and faith.

Keywords: Rhetorical heritage, inimitability, miracles, vision

مقدمة

قد شاع بين الدارسين للبلاغة وإعجاز القرآن أن الإمام عبد القاهر الجرجاني هو صاحب نظرية النظم وواضع أسسها، وذلك من خلال ما قدمه في كتابه الفريد "دلائل الإعجاز".وهذا الرأي صحيح ومقبول إذا كان حديثنا عن مفهوم نظرية النظم عند الأشاعرة الذين يعدّ عبد القاهر الجرجاني أحد أبرز أعلامهم ورأسا من رؤوسهم في البلاغة وإعجاز القرآن. أما إذا كان الحديث عن النظم بصورة عامة قبل الإمام عبد القاهر فإننا نتحفظ على

تاريخ تسليم البحث: 14ديسمبر 2015.

تاريخ قبول البحث: 11 سبتمبر 2016.

قول القائلين بأنه هو الذي وضع هذه النظرية في البلاغة وإعجاز القرآن. وذلك لأسباب عديدة سنذكرها في هذا العرض الموجز.

ولعل الذي حملنا على هذا الرأي الذي قدمنا به هذا العرض هو أن المتأمل فيما كتبه الإمام عبد القاهر في كتابه "دلائل الإعجاز" يدرك بما لا يدع مجالا للشك أنه وضع هذا السفر العظيم ليبين من خلاله فساد نظرية من يقول بأن الإعجاز القرآني يرجع إلى "الألفاظ دون المعاني، وأن المعاني لا دخل لها في مسألة الإعجاز القرآني".وقد أورد الإمام عبد القاهر أقوال القائلين بهذا الرأي ولم يصرّح بأسمائهم.

ولعل هذا التعتيم على رأي المخالفين للإمام عبد القاهر في نظرته للنظم هو الذي جعل كثيرا من الباحثين يرجع نشأة نظرية النظم لهذا الإمام، وبقي هذا الرأي هو الغالب على الساحة النقدية حتى طبع الجزء السادس عشر من كتاب "المغني في أبواب التوحيد والعدل" للقاضي عبد الجبار المعتزلي سنة 1381هـ/1961م. والذي خصّصه لمسألة "إعجاز القرآن" فإذا الأقوال التي ذكرها الإمام عبد القاهر ولم يصرح بنسبتها إلى أحد هي أقوال عبد الجبار بنصها ولفظها وقد أشار إلى هذا الأمر المهم محقق كتاب "دلائل الإعجاز"، الأستاذ القدير والناقد الكبير "محمود محمد شاكر" في مقدمته لكتاب "دلائل الإعجاز" فقال: "والدليل الساطع هو أن الأقوال التي ذكرتها آنفا، وقلت إن عبد القاهر لم يصرّح بنسبتها إلى أحد. هي أقوال القاضي عبد الجبار في كتابه المغني بنصها ولفظها، فهو يقول: "إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة.. " ثم يقول بعد ذلك: "إن المعاني لا يقع فيها تزايد، وإذن فيجب أن يكون التزايد عنه الألفاظ كما ذكرناه..."، (المغني ج16: 200)، وهذان القولان هما اللذان يدور كتاب "دلائل الإعجاز" على ردهما وإبطال معناهما".[1]

فالإمام عبد القاهر كان كل همه أن ينقض النظرية التي ترجع إعجاز القرآن إلى الألفاظ والضم على طريقة مخصوصة، وأنه و"منذ شق طريقه إلى هذا العلم الجديد الذي أسّسه، كان كلّ همه أن ينقض كلام القاضي في "الفصاحة"، وأن يكشف عن فساد أقواله في مسألة "اللفظ" بالمعنى المؤقت المحدِّد في كلامه في كتابه "المغني"".[2]

وقد أدى إغفال الباحثين لهذه العلاقة بين كلام عبد القاهر والقاضي عبد الجبار إلى غلط فاحش في فهم مسألة "اللفظ" و"المعنى" عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" ومنه أيضا عدم فهم النظم عند القاضي عبد الجبار الذي يعتبر ممثلا للمدرسة الاعتزالية فلا "اللفظ" فهم على حقيقته عند عبد القاهر ولا "المعنى" أيضا عرف على حقيقته عنده.[3]

وهذا الأمر هو الذي دفعنا للبحث في هذه القضية الشائكة، وأثار في ذهننا عدة إشكالات رغبنا في الإجابة عنها:

- هل توجد نظرية نظم خاصة بالمعتزلة؟

وإن وُجدت: فما هي حدودها؟ وما دوافع المعتزلة للقول بها والدفاع عنها؟

- وكيف نشأت هذه النظرية وتبلورت في الأوساط الاعتزالية ومن وضعها؟

- وما الفرق الجوهري بينها وبين نظرية النظم عند الأشاعرة الممثلين في آراء عبد القاهر الجرجاني؟

ولتسهيل البحث في هذه القضية الشائكة آثرنا أن يكون البحث على الشكل التالي:

1- مفهوم النظم عند المعتزلة.

2- الأصول الفكرية الاعتزالية وعلاقتها بالنظم والقرآن الكريم.

3-النظم وتبلوره في الفكر الاعتزالي.

4- المعنى عند المعتزلة وعلاقته بالنظم.

5- الفروق الجوهرية للنظم عند المعتزلة والأشاعرة.

6- خاتمة

ومع هذا كله فإننا نقر ومن البداية بأن البحث في مثل هذه المسائل يعتبر مخاطرة فكرية لها تبعات غير محمودة، ولكن الرغبة الملحة في الحفر في نقدنا القديم والبحث في مسائله وقضاياه التي لها صلة وثيقة بالقرآن الكريم وإبراز وجوه إعجازه اللغوي وهذا أوان الشروع في المقصود.

1- مفهوم النظم عند المعتزلة:

إن المتتبع لكلام علماء المعتزلة من الجاحظ حتى القاضي عبد الجبار يجد أن ما صدر عنهم من كلام في الإعجاز والبيان في القرآن الكريم والبلاغة العربية يصلح لأن يكون نظرية متكاملة الأركان في مسألة النظم لا تقل -في أهميتها- عن نظرية عبد القاهر في النظم، بل يدرك "أنها كانت أقوى الروافد التي أمدت نظرية النظم بالحياة".[4]

فإن المعتزلة -وكما هو معلوم- سبقوا إلى تداول واستعمال مصطلح النظم في بحوثهم ودراساتهم المتصلة بالإعجاز القرآني. وهذا ظاهر في أسماء كتبهم، ككتاب الجاحظ المعروف "بنظم القرآن"، وكتاب "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" لمحمد بن يزيد الواسطي، وكتاب "نظم القرآن" لابن الأخشيد.

وقد استعمل بعضهم هذا "المصطلح في ثنايا كتبهم ورسائلهم التي وضعوها في إعجاز القرآن".[5] ويأتي على رأس هؤلاء أبو الحسن الرماني (ت 384هـ)، الذي ذكر النظم في مواضع متفرقة من رسالته المشهورة "النكت في إعجاز القرآن"، كقوله في باب حسن البيان: "وحسن البيان في الكلام على مراتب، فأعلاه مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة، من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتقبله تقبل البرد".[6]

ونجد استعمال النظم كمصطلح عند القاضي عبد الجبار، فقد تحدث عنه في كتابه "المغني في أبواب التوحيد والعدل" في الجزء السادس عشر الخاص بإعجاز القرآن، ويعتبر كلام القاضي عبد الجبار "وحديثه عن النظم صالح لأن يمثل مرحلة الاكتمال والرشد في تطوره -حسب المفهوم الاعتزالي- فقد أضاف إليه بعض الأفكار الجديدة ونقله خطوة كبيرة".[7] وكلامه كما هو مبين في مواضعه جاء كرد على خصومه الأشاعرة -وخاصة الباقلاني- الذين أخذت أفكارهم وآراؤهم في اللغة والبيان حظها في النضج والاكتمال.

ومفهوم النظم عند المعتزلة مرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم الفصاحة وأيضا بالتصور الاعتزالي لمسألة كلام الله تعالي والقرآن الكريم وبنظرتهم العقلية إلى اللغة والبيان وبدون هذه المسائل لا يمكن فهم النظم عند المعتزلة فهو مرتبط بها ارتباطا وثيقا.

فحقيقة النظم عند المعتزلة تتلخص في قول القاضي عبد الجبار: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم، على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صنعة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع".[8]

فالمعتزلة ومن خلال هذا التعريف للفَصاحة يضعون تصورا خاصا بهم، ونظرية مستقلة من أجل دراسة إعجاز القرآن بطريقة موضوعية علمية. "وقد أصبحت مسألة ما إذا كان القرآن معجزا بنظمه وتأليفه أم بمعانيه فقط، أم بنظمه ومعانيه معا من القضايا الفكرية التي استقطبت اهتمام المفكرين والبيانيين".[9]

فبينما ركز الأشاعرة جهدهم في إثبات إعجاز القرآن بنظمه وتأليفه دون الالتفات إلى مسألة الألفاظ، ركز المعتزلة جهودهم في إظهار أن القرآن معجز بألفاظه وضمها على طريقة مخصوصة دون إغفال المعاني وإن كان دورها في الإعجاز ثانويا. وقد بين المعتزلة وبشكل صريح أن النظم وحده لا يصلح "للتعبير عن الإعجاز القرآني بمعزل عن الفصاحة، وفي هذا الشأن يقول القاضي عبد الجبار: "لا يصلح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ، وحسن المعنى، ومتى قائل قال: إني وإن اعتبرت طريقة النظم،

فلا بد من اعتبار المزية في الفصاحة، فقد دعا إلى ما أردناه، لأنه إذا أوجب اعتبار ذلك، فمتى حصل مثل تلك المزية في أي نظم كان، فقد صحت المباينة"".[10]

ومن خلال ما تقدم يظهر تأثير الاتجاه العقلي المعتزلي في بلورة نظرية النظم، لأن المعتزلة يجعلون مسألة الإعجاز والتحدّي بالقرآن الكريم في دائرة الممكن والمستطاع المدرك وهو الألفاظ وطريقة ضمها وإلا بطل الإعجاز، فإنه من غير الممكن أن نرجع إعجاز القرآن إلى مسألة النظم التي هي غامضة في تصور الأشاعرة وغير مدركة لأن هذا الأمر يدفع بقضية التحدي الواردة في القرآن إلى دائرة المحال وهذا ما رفضه المعتزلة.

والمعتزلة كما ورد في كلام القاضي عبد الجبار يفرقون بين دلالة الكلمة حال انفرادها، ودلالتها حال تأليفها، فالمزية ليست للكلمة حال انفرادها، بل هي ثابتة لها حال تأليفها ووجودها في السياق، "فالكلمة المفردة لا قيمة لها بمعزل عن السياق".[11]

يقول القاضي عبد الجبار في هذا السياق:"... لأنه إما أن تعتبر فيه -الكلام- الكلمة أو حركتها، أو موقعها، ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها، وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها".[12]

فالكلمة في حال الإفراد أو التركيب تخضع لأمور ثلاثة هي:

1- "مفهومها في ذاتها: من حيث الوضع الذي لها عند أهلها".

2- "مفهومها حيث تتداول عليها الحركات الإعرابية".

3- "مفهومها حين تأخذ مكانا خاصا في الكلام فتتقدم أو تتأخر".[13]

والفصاحة عند القاضي عبد الجبار المعتزلي تختلف اختلافا تاما عن معناها عند من جاء بعده من علماء البلاغة، فبينما نجد علماء البلاغة بعده يضعونها مقصورة على اللفظ دون المعنى، والبلاغة مقصورة على المعنى، ويفرقون بينهما كما يقول ابن سنان الخفاجي: "والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفْضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغ".[14]

ولعل وضع مقارنة بين ما قاله القاضي عبد الجبار -وهو يعبر في حقيقة الأمر عن رأي المعتزلة- وبما جاء عن الجرجاني في مسألة النظم يجد أن مفهوم الفصاحة عند القاضي عبد الجبار يلتقي مع مفهوم البلاغة عند ابن سنان ومفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني.

غير أن مفهوم النظم عند المعتزلة يختلف عن مفهوم النظم عند الأشاعرة ممثلين بعبد القاهر، ومفهوم البلاغة عند ابن سنان الخفاجي ومن جاء بعده من البلاغيين.

فنظرية المعتزلة في النظم "تقوم على أساسين:

أولهما: اختيار الألفاظ وانتقاؤها في صورتها الإفرادية.

وثانيهما: نظم تلك الألفاظ في صورة حسنة، كما تنظم الجواهر في العقد، فتوضع كل جوهرة بجوار ما يناسبها، مع مراعاة حسن الموقع وجمال الشكل".[15]

فالنظرية الاعتزالية تعتني بالنواحي الصوتية، وما يتعلق بانسجامها وتلاؤمها، وبخفة الألفاظ وسهولتها وعذوبتها. أما ما يتعلق بالمعاني فيجد الدارس للفكر الاعتزالي أن دورها في الإعجاز ثانوي، لأن المزية لا تظهر فيها، وإن كانت تظهر في الكلام لأجلها ولعل هذا ما صرح به القاضي عبد الجبار فقال: "إن المعاني لا يقع فيها التزايد، فإذن يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عنده هو الألفاظ التي يعبر بها عنها".[16]

2- الأصول الفكرية الاعتزالية وعلاقتها بالنظم والقرآن الكريم:

إن النظرية الاعتزالية في بيان إعجاز القرآن تختلف عن نظرية الأشاعرة التي بدأت مع الإمام الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن" واكتملت ونضجت بما قدمه الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" والذي تميز عن سابقيه بكثرة الشواهد وتدعيم التنظير بالنماذج التطبيقية. وقد تعمّد الإمام عبد القاهر وبحكم تأثره بالأفكار الأشعرية أن يخالف المعتزلة في نظرتهم إلى البيان وإعجاز القرآن. "ويمكن للباحث بقليل من التمعن أن يلحظ وجوه الاختلاف البيّن بين دارسي الإعجاز القرآني من المعتزلة من جهة ومن أهل السنة والأشاعرة من جهة ثانية، سواء في تصور حقيقة النظم القرآني أو في تحليل آياته، أو في الخطاب البياني، والمصطلحات البلاغية، أو في الجوانب التي تستأثر بالاهتمام".[17]

والمعتزلة في نظرتهم للإعجاز القرآني ينطلقون من فهمهم لمسألة كلام الله تعالى، وأيضا مسألة قدم القرآن وحدوثه، فالمعتزلة يقولون: إن الكلام حروف مقطعة وأصوات منظومة وهو فعل المتكلم وخلقه، ثم قاسوا عليه كلام الله تعالى، واعتقدوا بأنه مخلوق محدث.[18] "وهذا الاعتقاد هو الذي حدد وجهة نظرهم في إعجاز القرآن، فصاغوا نظرية النظم في صورة متوافقة مع هذا الأصل"[19].

فكلام الله تعالى عند المعتزلة ليس صفة ذاتية قائمة بذاته تعالى، ولا صفة أزلية قديمة قدم الذات، ليس صفة ذاتية لأنه -كما يقولون- من عوارض الأجسام[20]، وما كان كذلك فهو مناف للتنزيه المطلق، وليس صفة أزلية قديمة، لأن ذلك يؤدي -عندهم وفي نظرهم- إلى تعدد القدماء، وهو ما ينافي عقيدة التوحيد المطلق.

فكلام الله تعالى عند المعتزلة من صفات الأفعال لا من صفات الذات، فهم يدرسونه في باب العدل الذي هو الأصل الثاني من أصولهم الخمسة* والذي تبحث فيه الأفعال، وهذا يخالف ما عليه اعتقاد أهل السنة والأشاعرة الذين يبحثون هذه المسألة في باب التوحيد مع الصفات.

والمتكلم عند المعتزلة هو من فعل الكلام، لا من قام به الكلام، فحقيقة الكلام عندهم هو الحروف المنظومة والأصوات المقطعة.[21]

وعلى هذا التصور يكون الكلام من عوارض الأجسام، ومعنى هذا عند المعتزلة أن "كلام الله تعالى فعل، ومعنى وصفنا الله تعالى بأنه متكلم أنه فعل الكلام، لكن غير حاجة إلى جارحة أو أداة".[22]

وبناء على هذا الاعتقاد قال المعتزلة بأن القرآن مخلوق وليس كلام الله تعالى لأنه يتكون من حروف منظومة، وأصوات مقطعة، ويتقدم بعضها، ويتكون من بداية ونهاية، وهذا يعني أنه محدث وليس قديم، فالمحدث لا يصلح أن يكون صفة من صفات الله تعالى، وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار: "من اعتقد أنه تعالى ليس كمثله شيء يعلم أن هذا القرآن محدث كسائر الأعراض".[23]

ويقول أيضا أبو علي الجبائي: "فأما هذا القرآن المتلو فلا شبهة أنه محدث لأنه لا يعقل إلا وهو حروف يتقدم بعضها بعضا. فلو كان قديما لم يكن على هذا الوصف".[24]

ويظهر أن المعتزلة نظروا إلى القرآن نظرة عقلية وفهموا كلام الله تعالى فهما عقليا، "فلما قاس المعتزلة الغائب على الشاهد في شأن العدل، وذهبوا إلى ما ذهبوا إليه".[25]

فكان حكمهم حكما عقليا صارما يجنح إلى تنزيه الذات الإلهية تنزيها مطلقا. وقد كان لهذا الفهم والتوجه تأثير في توجيه تفكير المعتزلة وظهر أثره في عديد من بحوث اللغة والبيان، وفي طريقة دراسة النظم القرآني وإعجازه.

وبناء على هذا الاعتقاد جعل المعتزلة إعجاز القرآن راجعا إلى ألفاظه لا إلى معانيه وأن التفاضل يظهر في طريقة نظمها على وجه مخصوص، وأن المعاني وكما قال الجاحظ: "مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبلدي..".[26]

فلا يقع التفاضل فيها، وأن الشأن عند المعتزلة إنما هو في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ وفي الصياغة والنظم.

وجملة القول أن هناك نظرية اعتزالية في اللسان والنظم القرآني تستمد أسسها من أصول المذهب الاعتزالي، ومن العقيدة الاعتزالية في كلام الله تعالى وصفاته، وهي نظرية تقوم في

أصلها اللغوي على أن اللغة أو الكلام أصوات منظومة وحروف مقطعة، وبتعبير ابن جني أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. [27]

وانطلاقا من تلك المبادئ والأصول مال المعتزلة إلى تصور "النظم" في اللغة والقرآن واقع في الكلام من الأصوات، ونزعوا إلى أن موضوعه هو الصياغة اللفظية. [28]

3- النظم وتبلوره في الفكر الاعتزالي: نظرة تاريخية

إن الدارس للبلاغة وإعجاز القرآن عند الفرق الكلامية عامة وعند المعتزلة على وجه الخصوص يدرك وجود حدود تفصل بين تصور المعتزلة للإعجاز القرآني، وتصور غيرهم من الأشاعرة وأهل السنة، وهذا في حقيقته يعود إلى الأصول الفكرية لكل مدرسة وكيفية فهمها لكلام الله تعالى ونظرتهم للإعجاز في القرآن الكريم، ولعل الجاحظ هو أول من وضع للمعتزلة الأسس التي تقوم عليها نظرية "النظم" عندهم بل يعتبر الجاحظ هو أول من حدّد أصول وحدود الرؤية الاعتزالية في إعجاز القرآن، وهذا من خلال ما سطره من انتقادات لأستاذه النظام* الذي قال بالصرفة** وأنكر أن يكون القرآن معجزا بنظمه وألفاظه.

وأيضا بما قدمه من انتقادات وردود على أنصار المعاني الذين يقولون بأن جمال الكلام بمعانيه، وقد ركز أيضا الجاحظ في كتابه البيان والتبيين على إظهار جمال الصياغة اللفظية، والتأليف اللفظي، وانسجام الأصوات، وجمال البديع. [29]

ومن خلال قراءة وجمع ما تناثر من هذه البحوث في كتب ورسائل الجاحظ يمكننا إدراك معالم هذه النظرية، ولكن دون أن نستوعب جزئياتها ودقائقها. و"مرد عدم الاستيعاب هذا إلى افتقار الباحث للمصدر الرئيسي الذي يُرَجَّح أن يكون قد تضمن تفاصيل هذه النظرية وهو كتاب "نظم القرآن""[30]. المفقود.

وأول ما يطالع قارئ الجاحظ من هذه النظرية في صورتها المجملة، أن الكلام صوت، وتقطيع، وتأليف، ونظم.

فالكلام عند الجاحظ "جسم وليس من الأعراض، ولذلك فهو يحتمل ما تحتمله الأجسام من اجتماع وافتراق، ويحتمل الزيادة والنقصان والفناء والبقاء".[31]

وهذا القول من الجاحظ يناقض ما قرره بعض المعتزلة من أن الكلام عرض لا يقوم "بنفسه ولا بد من أن يقوم بغيره".[32]

وقد ركز الجاحظ في نظريته حول الكلام على مسألة التأليف ونظم الكلام إذ يقول: "الصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف".[33]

وجوهر رؤية الجاحظ هو التركيز على الجوانب المتعلقة بالأصوات اللغوية وعيوب جهاز النطق، والتركيز على "محاسن الألفاظ، وجماليات الصياغة اللفظية"[34]. ومن خلالها تتجلى الملامح التي تميز تصوره وتصور أصحابه للنظم، والقيم الفنية التي تظهر بها مزايا النظم.

ويمكننا أن نجمل آراء الجاحظ حول الكلام في النقاط التالية:

أ- "أن الكلام عند الجاحظ جسم لا عرض، أي مادة مستقلة بنفسها".

ب- أنه صوت وتقطيع وتأليف".

ج- "إن التأليف عنده يعني التركيب والضم، ويعني أيضا الصياغة الفنية للكلام، التي تتخذها بعض الأعمال الإبداعية المعتمدة على اللغة، وهو يرادف بهذا المعنى الثاني النظم".[35]

وقد تأثر بهذه النظرية كل من جاء بعد الجاحظ من المعتزلة وهذا ما يؤكده ريادة الجاحظ فنجد القاضي عبد الجبار يقول في حدّ الكلام: "أنه ما انتظم من حرفين فصاعدا، أو ماله نظام من الحروف مخصوص".[36]

ويقول ابن سنان الخفاجي: "ونحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نبذا من أحكام الأصوات والتنبيه على حقيقتها، ثم نذكر تقطعها على وجه يكون حروفا متميزة، ونشير إلى طرف من أحوال الحروف في مخارجها، ثم ندل على أن الكلام ما انتظم منها".[37]

وقد برز مصطلح النظم في عناوين وبحوث من جاء بعد الجاحظ مثل كتاب "محمد بن يزيد الواسطي" إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه، وكذلك نجد مصطلح النظم في رسالة: "النكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن الرماني، وما كتبه "ابن سنان" في كتابه "سر الفصاحة"، وما سطره القاضي عبد الجبار في الجزء السادس عشر من موسوعته "المغني في أبواب التوحيد والعدل".

ونجد أيضا ابن جني في كتابه "الخصائص" قد خصص جزءا كبيرا للحديث عن "التقريب بين الأصوات"، وقد أظهر عناية بالغة بالدراسة الصوتية وهي كما يظهر نابعة عن روحه المذهبية، وعن تصوره للغة وجمالها في الفكر الاعتزالي.

فنجد أن كل ما قرره من جاء بعد الجاحظ في مسألة إعجاز القرآن راجع إلى الصياغة اللفظية، ونظم الألفاظ، وأن موضوعه هو الكلام المؤلف من الأصوات.

يقول الرماني: "إن أعلى مراتب البيان ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النفس تقبل البرد".[38]

ومن أسباب حسن العبارة عند الرماني تعديل النظم والمقصود بذلك تحقيق التجانس بين الأصوات والكلمات، مما يعطيها حسنا في الأسماع وسهولة في اللسان.

وكذلك نجد ابن سنان في كتابه "سر الفصاحة" يحرص كل الحرص على التمسك بأصول الفكر الاعتزالي في البيان وما يتعلق بالإعجاز في القرآن وذلك يظهر من السطور الأولى للكتاب إذ صدره بدراسة الأصوات اللغوية، وقد دافع بكل شدة عن آراء المعتزلة وطروحاتهم بداية من مفهومهم للغة والكلام وانتهاء بتصورهم للنظم، وقد أنكر بشدة الرؤية الأشعرية للنظم وإعجاز القرآن، والنظم عنده لا يخرج عما قرره أسلافه من المعتزلة من أن النظم هو نظم للألفاظ، وأن موضوع هذا النظم هو الكلام المؤلف من الأصوات. يقول ابن سنان: "إن كل صناعة من الصناعات فكمالها بخمسة أشياء على ما ذكره الحكماء: الموضوع وهو الخشب في صناعة النجارة، والصانع هو النجار، والصورة، وهي كالتربيع المخصوص إن كان المصنوع كرسيا، والآلة مثل المنشار والقدوم، والغرض، وهو أن يقصد على الجلوس فوق ما يصنعه... وإذا كان الأمر على هذا، ولا تمكن المنازعة فيه، وكان تأليف الكلام صناعة، وجب أن نعتبر فيها هذه الأقسام، فنقول: إن الموضوع هو الكلام المؤلف من الأصوات على ما قدمته، فأما الصانع، فهو المؤلف الذي ينظم الكلام بعضه مع بعض، كالشاعر والكاتب وغيرها..".[39]

فموضوع صناعة النظم هو الكلام المؤلف من الأصوات وهذا الرأي ما نطق به الجاحظ والرماني في مسألة النظم وإعجاز القرآن.

وقد بقي هذا الرأي متصلا عند علماء هذه المدرسة من الجاحظ ومن جاء بعده حتى جاء القاضي عبد الجبار الذي يعتبر بحق مطوّر هذه النظرية والتي عرفت اكتمال صورتها على يده، وقد تناول مسألة "النظم" في أثناء كلامه على إعجاز القرآن، في الجزء السادس عشر من كتابه "المغني في أبواب التوحيد والعدل" الذي خصّصه للكلام عن إعجاز القرآن، يقول القاضي عبد الجبار: "اعلم أن الكلام إنما يكون فصيحا لجزالة لفظه، وحسن معناه، ولا بد من اعتبار الأمرين معا، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى، لم يعد فصيحا، فإذن يجب أن يكون جامعا لهذين الأمرين وليس فصاحة الكلام، بأن يكون له نظم مخصوص، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، النظم مخلتف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحدا وتقع المزية في الفصاحة، فالمعتبر ما ذكرناه، لأنه يتبين في كل نظم وكل طريقة، وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء، يسبق إليه، ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء، ومن يفضل عليه بفضل في ذلك النظم".[40]

وقد قال القاضي عبد الجبار نقلا عن شيخه أبي هاشم الجبائي ثم قال موضحا رأي أستاذه: "إن العادة لم تجر بأن يختص واحد بنظم دون غيره، فصارت الطرق التي عليها يقع نظم الكلام معتادة، كما أن قدر الفصاحة معتاد، فلا بد من مزية فيهما، ولذلك لا يصح عندنا

(يعني المعتزلة) أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ وحسن المعنى".[41]

وهذا الرأي من القاضي عبد الجبار يحاول فيه رد فكرة النظم عند الأشاعرة وخاصة عن معاصره الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن".

وهذا يعني أن القاضي عبد الجبار والجبائي والرماني ومن جاء بعدهم مثل ابن سنان الخفاجي يحاولون تكوين جبهة موحدة تدعو وتسعى إلى نشر "المبادئ البيانية الاعتزالية التي ترفع من شأن الألفاظ والصياغة اللفظية".[42]

فالتزايد عند المعتزلة يكون في الألفاظ ولا يكون في المعاني، وهذا يرجع في حقيقته إلى ما قرره الجاحظ من أن المعاني مطروحة في الطريق وأن قيمته إنما هي في تخير الألفاظ وجودة وحسن الصياغة.

فالعناية بالقيم الجمالية هو شيء مشترك بين علماء هذه المدرسة ابتداء من الجاحظ الذي يعتبر أول من حدّد معالم هذه النظرية البيانية الاعتزالية إلى الرماني والقاضي عبد الجبار ثم إلى ابن سنان الخفاجي.

وقد ظهر من خلال هذا العرض الموجز عناية المعتزلة بالألفاظ وطريقة صياغتها وحسن سبكها واعتبارها الأصل في قضية الإعجاز.

فالتصورات التي قدمها علماء المدرسة الاعتزالية تعتبر نظرية كاملة في إعجاز القرآن وفي تصور المعتزلة للنظم.

ومما تقدم يمكننا القول "أن المعتزلة احتضنوا قضية إعجاز القرآن"[43] وشغلتهم منذ أيام الأولى لنشأة حركتهم الفكرية، وأكدوا عنايتهم بها، لأنها "تتصل بمختلف أوجه نشاطهم الفكري فهي وثيقة الصلة بأصول الاعتزال. وبمسألة إثبات النبوة وتصحيحها، وبالرد على الطاعنين في القرآن، لذا كان طبيعيا أن يكونوا أول من ينظم البحث فيها، وأن تتواصل عنايتهم بها.

4. المعنى وعلاقته بنظرية النظم عند المعتزلة:

إن مكانة المعاني في نظرية النظم الاعتزالية ثانوية، وقد صرّح الجاحظ برأيه بما لا يدع مجالا للشك أن "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبلدي... " وأن إعجاز القرآن واقع في حسن التعبير، وجمال الصياغة. وأن تفاضل الناس يكون فيها لأن المعاني معروفة وشائعة، ولا يقع التفاضل فيها.

وهذا الرأي من الجاحظ ومن تبعه من المعتزلة لم يكن اختيارا عشوائيا، بل هو شديد الصلة بمذهبه الاعتزالي الذي ينظر إلى الإعجاز القرآني نظرة عقلية صارمة، ويبحث عن شيء

يقع تحت دائرة الممكن ويمكن من خلاله قياس التفاضل والتفاوت وهذا واقع في الألفاظ دون المعاني التي لا يمكن قياس التفاضل فيها لأنها مرتبطة بأمور ذهنية خفية فهي واقعة تحت دائرة المحال وغير المستطاع.

فلا غرابة أن ينتصر المعتزلة للألفاظ "فإن من يؤمن بأن القرآن مخلوق لأنه كلام مؤلف من أصوات وحروف يتقدّم بعضها بعضا، وبأن الكلام لا يعقل إلا إذا كان بهذه الصورة... جدير به أن ينظر إلى نظم الكلام على أنه اختيار للألفاظ، وتأليفها تأليفا متلائم الكلمات، منسجم الأصوات، واضح الدلالة".[44] والجاحظ بهذا الطرح الذي قرّر فيه إعجاز القرآن قد وضع لمن جاء بعده من المعتزلة مفاتيح البحث، ومهد لهم طرق دراسة الإعجاز القرآني.

وقد نتج عن هذه القضية بروز مذهبين في النقد العربي:

أ- مذهب يتبنى تقديم المعنى.

ب- ومذهب يتبنى تقديم اللفظ.

وقد عدّ الجاحظ من أنصار المذهب الثاني، لأنه "من آمن بأن النظم حقيق برفع البيان إلى مستوى الإعجاز لم يعد قادرا على أن يتبنى تقديم المعنى على اللفظ".[45]

وقد انتصر من جاء بعد الجاحظ من المعتزلة لهذا المذهب يقول القاضي عبد الجبار موضحا مكانة المعاني عند المعتزلة: "وقد علمنا أن لا معتبر بالمعاني في هذا الباب، سواء لورودها على طريق الإبداع أو السبق، فالتحدي بالقرآن لا يصح أن يصرف إلى هذه الوجوه على أنه قد بيّنا أن التحدي وقع بالقرآن لا بالمعاني، وبينا أنه الذي يبين فيه التفاضل دون المعاني، وإن كان حسن المعاني كالشرط، وكالمؤثر في هذا الباب".[46]

فالقاضي ومن خلال كلامه في هذا النص يؤكد أن المعاني لا دور لها في إظهار التفاضل والتفاوت في الفصاحة، ولكن قد يعترض معترض ويقول: إذا فما دور الكلام وما فائدته إن اعتمدنا في نظمه وتركيبه على الألفاظ وأهملنا المعاني؟؟.

فنقول إن المعتزلة تفطنوا لهذه الجزئية التي إن تحققت كانت نظريتهم في النظم ناقصة وغير واضحة وقد أجاب القاضي عبد الجبار عن هذا الاعتراض فقال: "إن المعاني، وإن كان لابد منها، فلا تظهر فيها المزية، وإن كان تظهر في الكلام لأجلها، ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الأخر، والمعنى متفق، وقد يكون المعنيان أحسن وأرفع، والمعبر عنها في الفصاحة أدون، فهو مما لا بد من اعتباره، وإن كانت المزية تظهر بغيره، على أنا نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد، فإذن يجب أن يعتبر التزايد عنده الألفاظ التي يعبّر بها عنها".[47]

فالمعاني دورها ثانوي في نظرية النظم الاعتزالية وإن كان لابد منها في الكلام، وقد احتجوا بحجج كثيرة لإثبات صحة رأيهم هذا، يمكننا أن نوجزها في النقاط التالية:

1- أن تأليف الألفاظ وصياغتها مجال لا حدّ له لإظهار المهارة والبراعة في حسن البيان، وميدان للابتكار والاختراع في اللغة، ولهذا كان تأليف الكلام صالحا للتفاضل بين الفصحاء، في حين أن المعاني محدودة ومعروفة عند جميع الناس.[48]

2- أن المُعَبِرين من الفصحاء يعبرون عن معنى واحد ويكون أحدهما أفصح من الآخر، ولو كان الأمر في الفصاحة يتعلق بالمعاني لما وقع تفاوت بينهما، وقد يعبران عن معنيين أحدهما خسيس والمعنى الآخر حسن ثم يحكم من الناحية البيانية للذي عبر عن المعنى الخسيس بأنه أفصح من الآخر، ولو كان الأمر في الفصاحة عائدا إلى المعنى لما صح ذلك.[49]

3- ودليلهم الثالث هو: التفسير والمفسَّر (بفتح السين)، وتعد من أظهر حججهم على خصومهم ومعناها: أن قيمة الكلام الفصيح لو كانت عائدة إلى المعنى لكان التفسير في مرتبة النص المفسّر فصاحة، شعرا كان ذلك النص أو قرآنا، لأن التفسير يؤدي معنى النص المفسر.[50]

ومما تقدم يمكننا أن ندرك مكانة المعنى عند المعتزلة، وأن نظرية النظم عندهم قائمة على الاحتفاء بالألفاظ وإبرازها، والبحث والتعمق في كل ما له صلة من الأصوات والصيغ والنظم والضم، وأن كلامهم على المعنى يعد ثانويا لأن المعاني لا يقع فيها التزايد.

5- الفروق الجوهرية بين النظم عند المعتزلة وخصومهم الأشاعرة:

إن الفرق بين نظرية النظم عند المعتزلة ونظرية النظم عند الأشاعرة هو في الحقيقة فرق بين مذهبين فكريين لكل واحد منها نظرته إلى كلام الله تعالى وإلى مواضع الإعجاز فيه وهذا العرض الموجز لا يتسع لبسط هذه الفروقات العقدية وإن كانت لا تخفى على من عرف عقائد الفرق الكلامية.

وقد عرفنا فيما تقدم من الكلام مفهوم المعتزلة للنظم وأنه تابع لمفهومهم للكلام بعامة، ولكلام الله تعالى بخاصة، وقد تمخض عن هذا الرأي نظرية اعتزالية خاصة بإعجاز القرآن، تبرز أسسها الفنية في العناصر الآتية:

1- أن البديع ومحسناته اللفظية داخلة ضمن مكونات النظم.

2- أن للكلمة المفردة قيمة جمالية ذاتيه محسوسة ثابتة.

3- أن نظم الكلام وتأليفه يحسن بتخير أحسن الألفاظ وأخفها وأعدلها.

4- أن التلاؤم اللفظي وجمال الصورة السمعية للكلام من عوامل حسن النظم.

5- أن أساليب البيان كالإيجاز والاستعارة والكناية والتمثيل يرجع حسنها إلى المهارة في التصرف في الألفاظ ووضع بعضها موضع بعض.

وبالرجوع إلى ما كتبه الأشاعرة في مسألة النظم وإعجاز القرآن نجد أنهم يخالفون المعتزلة في نظرتهم لهذه الأسس، ومن قرأ كتاب "دلائل الإعجاز" يلمس شيئا عجيبا وهو أن الإمام عبد القاهر الجرجاني عمد إلى نقض هذه الأسس وبين فسادها وفساد الرأي الذي بنيت عليه.

فأما بالنسبة للبديع ومحسناته اللفظية فإنك لا تجد له ذكرا في "دلائل الإعجاز" ولا في كتابه "أسرار البلاغة" لأن النظم لا يشمله في الفكر الأشعري.

أما الكلمة المفردة فقد أنكر الجرجاني وبكل شدة أن تكون لها قيمة جمالية مستقلة عن السياق.[51]

أما مسألة التلاؤم اللفظي فقد ردها الجرجاني وبين تعسف أصحابها في إشارة إلى أبي الحسن الرماني لأنه يلزم القائلين به وجود ترتيب للألفاظ لا على نسق المعاني، ثم يكون ذلك معجزا وهذا فاسد.[52]

وقد أنكر الجرجاني مسألة خفة الألفاظ وسهولتها وسلامتها وأن تكون لها علاقة بالإعجاز في القرآن الكريم.[53]

غير أن الجرجاني يتفق مع المعتزلة في الأساس الذي يتعلق بأساليب البيان وأن لها قيمة عالية في البيان وإعجاز القرآن، ولكنه يخالفهم في مصدر تلك القيمة ومكانها من تلك الأساليب.[54]

وهذه الفروق عائدة إلى تصور الأشاعرة لحقيقة الكلام فقد "قالوا -كما نسب إلى شيخهم الأول- إن كلام الله ينقسم إلى قسمين:

- كلام مركب من الحروف والأصوات، مخلوق محدث، وهو القرآن.

- وكلام نفسي لم يزل مع الله تعالى، وهو جوهر واحد لا تركيب فيه، وهذا الكلام هو كلام الله القديم الذي يتصف بالإعجاز".[55]

وقد أثّر "هذا الاعتقاد في نظرتهم إلى إعجاز القرآن، فقالوا: إن المزية ليست في الجانب المادي من الكلام، ليس في هذه الحروف المركبة والأصوات المنظومة، ليست في نظم الألفاظ وإنما في نظم المعاني".[56]

وبناء على ما تقدم فإن ما كتبه الإمام عبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" هو سعي حثيث منه لنقض نظرية المعتزلة في النظم، وبناء نظرية خاصة بالأشاعرة في "النظم".

خاتمة البحث:

ويمكننا أن نستخلص في نهاية هذا البحث الموجز النتائج التالية:

- أن للمعتزلة نظرية مستقلة في النظم مستمدة من رؤيتهم العقلية للبيان وإعجاز القرآن.

- أن مفهوم النظم عند المعتزلة مرتبط بالألفاظ وواقع فيه، فالقرآن معجز بألفاظه ولا علاقة للمعنى بقضية الإعجاز عندهم.

- النظم عند المعتزلة معناه: انتقاء الألفاظ ونظمها في صورة حسنة كما تنظم الجواهر في العقد فتوضع كل جوهرة بجوار ما يناسبها مع مراعاة حسن الموقع وجمال الشكل.

- أن هذه النظرية مستمدة من رؤية المعتزلة وفهمهم لمعنى الكلام وأنه مجموعة من الأصوات والحروف توضع بجانب بعضها ويعتريها التقديم والتأخير والزيادة والنقص، وقاسوا كلام الله تعالى على هذا المفهوم الذي وضعوه للكلام.

- أن المتأمل في تاريخ هذه النظرية يرجع الفضل إلى ابتكارها وتمهيد البحث فيها إلى الجاحظ، وأن القاضي عبد الجبار قد أكمل جوانب النقص في هذه النظرية وربطها بالفصاحة، ودافع عنها دفاعا شديدا وحشد الأمثلة والشواهد عليها في كتابه "إعجاز القرآن" الذي يمثل الجزء السادس عشر من كتابه "المغني في أبواب التوحيد والعدل".

- أن هذه النظرية تمجد الألفاظ وتجعلها العمدة في الإعجاز القرآني، وأن المعاني لا علاقة لها بالنظم وإعجاز القرآن.

- أن الأشاعرة من الباقلاني إلى عبد القاهر الجرجاني سعوا بكل حرص على نقد هذه النظرية الاعتزالية في النظم، وحاولوا تقويض أسسها وهدم أركانها، وتبيين فسادها وخطئها.

- أن النظم عند الأشاعرة مستمد من تعريفهم لكلام الله تعالى وأنه الكلام النفسي القديم.

- أن على الراغب في فهم نظرية النظم عند المعتزلة والأشاعرة على السواء، أن يرجع إلى ما قرروه من أصول في فهمهم لكلام الله تعالى، وكيف نظروا إلى القرآن الكريم، وطريقة فهمهم للغة العربية، وآليات التأويل عندهم، فالإعجاز له صلة قوية بالأصول الفكرية والعقدية لهذه الطوائف الكلامية ودون هذه المقدمات لا يمكن تصور القضية تصورا صحيحا وهذا ما يؤكده كثير من الباحثين في هذا الشأن.

مراجع البحث وإحالاته:

---

1 عبد القاهر الجرجاني -دلائل الإعجاز- قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر- شركة القدس للنشر والتوزيع - ط3- 1992 - مقدمة التحقيق - ص: د.

2 المصدر نفسه ص: هـ. من مقدمة التحقيق.

3 المصدر السابق ص: هـ

4 محمد مصطفى أبو شوارب وأحمد محمود المصري- أثر المتكلمين في تطور الدرس البلاغي- دار الوفاء- الإسكندرية- ط1- 2006- ص: 13.

5 أحمد أبو زيد- مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن- دار الأمان- الرباط- ط1- 1989-1409- ص:51.

6 أبو الحسن الرماني- النكت في إعجاز القرآن- ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن- تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام- دار المعارف- مصر- ص: 98.

7 أحمد أبو زيد- مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن- ص: 52.

8 القاضي عبد الجبار- المغني في أبواب التوحيد والعدل- الجزء السادس عشر- تحقيق: أمين الخولي- طبعة مصر 1380هـ- ص: 199.

9 محمد مصطفى أبو شوارب- أحمد محمود المصري- أثر المتكلمين في تطور الدرس البلاغي- مصدر سابق- ص:23.

10 القاضي عبد الجبار- المغني في أبواب التوحيد والعدل- ج16- ص: 198.

11 محمد مصطفى أبو شوارب- أحمد محمود المصري- أثر المتكلمين في تطور الدرس البلاغي- مصدر سابق- ص:16.

12القاضي عبد الجبار- المغني في أبواب التوحيد والعدل- الجزء السادس عشر- مصدر سابق- ص: 199.

13 عبد الكريم الخطيب- الإعجاز في دراسات السابقين- دار الفكر العربي- ط1- 1994- ص: 226.

14 ابن سنان الخفاجي- سر الفصاحة- تحقيق: عبد المتعال الصعيدي- طبعة صبيح- 1372، 1953- ص: 60.

15 أحمد أبو زيد- المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن- مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الرباط- ط1-1986- ص: 292.

16 القاضي عبد الجبار- المغني في أبواب التوحيد والعدل- الجزء السادس عشر- مصدر سابق- ص: 199-200.

17 أحمد أبو زيد- المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن- مصدر سابق- ص: 52-53.

18 أبو الحسن الأشعري- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين- تحقيق أحمد جاد- دار الحديث- القاهرة- 2009/1430- ص: 114.

19 أحمد أبو زيد- المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن- مصدر سابق- ص: 293.

20أبو الحسن الأشعري- مقالات الإسلاميين- مصدر سابق- ص 115.

* أصول المعتزلة الخمسة هي: التوحيد-العدل- المنزلة بين المنزلتين- الوعد والوعيد - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- ينظر: القاضي عبد الجبار-شرح الأصول الخمسة- تحقيق: عبد الكريم عثمان- مكتبة وهبة- ط2- 1988م.

21أبو الحسن الأشعري- مقالات الإسلاميين- مصدر سابق- ص 116.

22أحمد أبو زيد- مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن- مصدر سابق- ص: 22.

23 القاضي عبد الجبار- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة- تحقيق: فؤاد السيد- الدار التونسية للنشر- 1974- ص: 157.

24 المصدر نفسه- ص: 157.

25 مختار لزعر- التصور اللغوي في الفكر الاعتزالي- دار الأديب للنشر والتوزيع- وهران- 2006- ص: 35.

26 الجاحظ- الحيوان- تحقيق: عبد السلام هارون- دار الكتاب- بيروت- ط3/1969- ج3- ص: 131-132.

27 ابن جني- الخصائص.

28 أحمد أبو زيد- مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن- مصدر سابق- ص: 71.

* أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام، نشأ بالبصرة فأخذ عن الخليل بن أحمد، وأبي عبيدة علوم اللغة والأدب، كما أخذ عن أبي هذيل العلاف علم الكلام، وقرأ كتب الفلسفة وإليه تنسب فرقة النظامية من المعتزلة، وكان شاعرا له كتب عديدة: كتاب التوحيد، وكتاب الرد على الدهرية وكتاب العدل، توفي سنة 224هـ- انظر: الشهرستاني- الملل والنحل- تحقيق: محمد سيد كيلاني- دار المعرفة- بيروت- 1975- ج1- ص: 53.

** قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: "فذهب شيطان المتكلمين أبو إسحاق النظام إلى أن الإعجاز كان بالصَّرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقا للعادة. قلنا وكأنه من هذا القبيل هو المعجزة لا القرآن". تاريخ آداب العرب- دار الكتاب العربي- بيروت- 1425-2005- ج2- ص: 96.

29 للتفصيل ينظر: الجاحظ- البيان والتبيين- ت-عبد السلام هارون- دار الفكر- بيروت- ط4- ج1- ص: 58 وما بعدها.

30 إدريس بلمليح- الرؤية البيانية عند الجاحظ- دار الثقافة- الدار البيضاء/ المغرب- ط1- 1404-1984- ص:139.

31 الجاحظ- رسائل الجاحظ- ت حسن السندوبي- المكتبة التجارية- 1933- ص: 149.

32 ابن سنان الخفاجي- سر الفصاحة- مصدر سابق- ص: 7-8.

33 الجاحظ- البيان والتبيين- مصدر سابق- ج1- ص: 79.

34أحمد أبو زيد- مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن- مصدر سابق- ص: 55.

35إدريس بلمليح- الرؤية البيانية عند الجاحظ- مرجع سابق- ص: 144.

36 القاضي عبد الجبار- شرح الأصول الخمسة- مصدر سابق- ص: 528.

37 ابن سنان الخفاجي- سر الفصاحة- مصدر سابق- ص: 54.

38 الرماني- النكت في إعجاز القرآن- مصدر سابق- ص 98.

39 ابن سنان الخفاجي- سر الفصاحة- مصدر سابق- ص: 93.

40 القاضي عبد الجبار- المغني في أبواب التوحيد والعدل- الجزء السادس عشر- مصدر سابق- ص: 197.

41 المصدر نفسه- ج16- ص: 199.

42أحمد أبو زيد- مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن- مصدر سابق- ص: 69.

43 محمد زغلول سلام- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري- دار المعارف- مصر- 1961- ص: 232.

44أحمد أبو زيد- مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن- مصدر سابق- ص: 77.

45 إحسان عباس- تاريخ النقد الأدبي عند العرب- مؤسسة الرسالة- الطبعة 1- 1971- ص: 98.

46القاضي عبد الجبار- المغني في أبواب التوحيد والعدل- الجزء السادس عشر- مصدر سابق- ص: 199.

47 القاضي عبد الجبار- المغني في أبواب التوحيد والعدل- الجزء السادس عشر- مصدر سابق- ص: 199-200.

48 ينظر: أبو الحسن الرماني- النكت في إعجاز القرآن- مصدر سابق- ص: 99.

49 ينظر: أحمد أبو زيد- مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن- مصدر سابق- ص: 79.

50 المصدر نفسه- ص: 79.

51 ينظر: عبد القاهر الجرجاني- دلائل الإعجاز- ص: 386.

52 ينظر: المصدر نفسه- ص: 60

53 ينظر: عبد القاهر الجرجاني- دلائل الإعجاز- ص: 399.

54 ينظر تفصيل هذه المسألة- دلائل الإعجاز- ص: 366-367.

55 عبد القادر بطار- محاضرات في المذهب الأشعري- مطبعة وراقة بلال- فاس- ط1- 2015/1436- ص: 98-99-100.

56 أحمد أبو زيد- المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن- مصدر سابق- ص: 293.